العودة إلى التيه

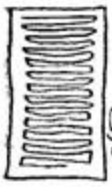

بقلم : محمد عبد الحليم عبد الله

هناك بضعة كيلو مترات لا بد أن يمشيها لكى يصل الى الدار التى بات يحلم بها اربعين يوما ..

وكان ينأى باستمرار عن الطرق الرئيسية لا لشيء الا ليختصر الطريق . والارض من حوله .. حقول .. وترع جافة .. واشجار عراها الشتاء من اوراقها . اما السماء فقد بدت رحيمة لا سحاب ولا مطر . والشمس تلقى بأشعتها على الارض التى ندتها امطار الاسبوع الماضي . كان يحسها تحت قدميه العاريتين فى الاماكن التى لم تجف بعد .

كان طويلا يميل الى الانحناء شيئا ما. فى وسطه حزام عريض من الصوف غزله ونسجه وشده على وسطه .. وكان يشعر بعد ان يشده ان جسمه أكثر تماسكا وقوة ... سريع المشية مع طوله يهرول بطريقة تدعو الى الانتباه . وقد شمر اذيال الجلباب بواسطة الحزام . ومشي على الارض الندية ليقطع بضعة كيلومترات الى الدار التى لم يرها منذ اربعين يوما ... وحده على الطريق .. على كتفه فأس ينقلها الى الكتف الاخرى اذا ما احس بالتعب وفى يد الفأس الخشبية علق (جردل) من الصاج يترنح مع المشية فيحدثه صوتا من الممكن أن يكون مسليا لعابر السبيل ... صوتا معدنيا خاويا «ترن .. طن .. ترن .. طن » ليس بينه فرق كبير وبين الصوت المعدنى الذى ينبعث من (مفصلة) شباكه حين تعابثه ريح الخماسين .

وبحركة غير ارادية الفى يده تحرك يد الفأس من اليمين الى الشمال لكى يستمر صدور الصوت . وكان الطريق خاليا فأسبل عينيه . وسرى الدفء فى أوصاله من الشمس المتحررة من كل سحاب فأحس كأنه فى الحجرة العلوية فى داره والشباك فيها يبعث الازيز « ترن .. طن » والليلة ليلة سوق .. وصحن الدار قد عبق بروايح مختلفة أقلها رائحة التوابل من حلة نحاسية على الكانون جلست امامها زوجته ...

وعندما دخلت صورة زوجته فى نطاق افكاره اخذ يحرك يد الفأس لينبعث الصوت المعدنى قويا حاسما مؤكدا أنه فى الدار وان ريح الخماسين تهز عليها الشباك ...

لكنه ما لبث أن تنهد وفتح عينيه ... كان كل شيء من حوله كما هو . الطريق

الممتد والاشجار العـــارية .. والترع الجافة ..

انه منذ اربعـــين يوما لم يذق دفء الحنان . « سكينة » زوجته فى الدار وهو نائم فى الخيمة بين عمال الترحيلة ... رجل جنب رجل على فراش من القش . كانوا يضـــحكون ويتبادلون النكت ويذكر كل منهم صاحبه بزوجته . وتتأجج النار فى الحطب جنبهـــم حتى

شعر انه محتاج الى أن يأكل او ان يشرب او يدخن ... على الاقل . لكنه تذكر انه لا يحمل طعاما فقد اكلت الليالى الاربعون كل نقوده وزاده وقواه . فلم يبق معه حتى اجرة القطار . غير انه احس بقوة اعظم من المألوف . فعندما يصـــل سيجـــد سكينة جالســـة أمام الكانون... لا شك فى ذلك... فاليوم هو يوم الســـــوق وعند آذان العصر

تخبو فيخبو كل شيء فى المكان ..حتى الارواح حتى الاحلام . فكم مرة استيقظ عابر السبيل هذا وهو يدعـــــو على الشيطان ... الذى طالما نقـــل اليه عبر الاحلام فى شبابه نساء لا يعرف صورهن ، ثم حرمه من حنان ســـكينة طوال ليالى الغيبة ... وقد كان مشتاقا اليها ..

واحس بوهج غير عادى يسرى فى اوصاله . شعر برغبة فى عمل ما يؤكد الحياة .. يؤكد الحياة فيه هو ... فى هذه اللحظة ... وتوا .

سيطرق عليها الباب فجأة ... بتلك الحلقة الحديدية الكبيرة التى تشـــبه الخلخال ...

وتبسم ، وجرى ريقه ... تحلب بغزارة كمن شم رائحة الشواء وحرك يد الفاس لينبعث الصوت المعدنى . انه قريب من صوت الشباك حين تحركه الريح وهو جالس مع سكينة ... ما اجمل وهج النار على وجهها الشاحب.. انه يكسو ضعفها حمرة يود أن تدوم . غير انه فى سبيلها يقطع الآن كل هذه الكيلومترات مشيا على قدميه . لقد نزل

البندر ذات يوم فاشترى لها منديلا من الحرير . كبيرا تعصب به رأسها . من اجل ذلك تلفت الحسبة فلم يجد مايكفيه. غير انه لم يلبث الا قليلا حتى عاد اليه اقتناعه بأن ابتسامة حلوة من وجهها الذى يشبه حتى الآن وجوه الاطفال سينسيه كل المتاعب ...

وعاد يهز يد الفأس لينبعث الصوت المعدنى ... « ترن .. طن .. ترن .. طن » فأخذ نفسا عميقا .. « آه .. هانت .. انا الآن فى نصف الطريق »

ومع تنهد الراحة دخل الى مخيلته صوت جديد من خلال حركة الفأس هو صوت طشت النحاس حين تلقى به زوجته أمام رجليه وتصب فيه ماء ساخنا ... يضع فيه قدميه فيغمر البخار وجهه وتوقظ الحرارة قدميه الميتتين وتتمشي يد سكينة على ساقه لتغسل عنها الطين والتعب ويغمض عينيه ويسند ظهره وراسه الى الجدار فى استسلام من يلقى بالهموم .. والزمام..والحب..فى وهلة صغيرة..

لكنه فجأة افاق من هذه الاحلام .. احس ببرد طارىء يسرى فى بدنه .. ولم يكن قد فطن بعد الى ان الشمس قد غامت . هناك سحاب فضولى جبار لا يعرف العواطف طمس مصدر الدفء . وبلا قصد وجد نفسه ينفخ فى السماء كأنه اراد ان يكشط عنها السحاب كما يفعل عادة برغوة اللبن . وضحك وحده فى الخلاء ونظر فاذا خضرة الحقول تتحول الى دكنة بعد ان انسحبت اشعة الشمس . واندفع قلقه فجأة الى رجليه .. احس انه يثب احيانا ويعدو احيانا .. وتلفت فخشي أن يظن به الناس الظنون ... كسارق او مجنون .. فعاد يمشي الهوينا ... ويهز يد الفأس لترسل اليه لحنها الساحر من خلال المعدن الصامت الذى كساه الصدأ ...

وما لبث أن سأل نفسه « هل تحس سكينة الآن وهى فى الدار بما اقاسيه على الطريق ؟! » واجاب عن سؤاله بابتسامة . وهز راسه مؤمنا على افكاره التى بداخل راسه : انها تحبه ... حقيقة ان جمالها مصدر عذاب له . فلو لم تكن جميلة ما ترك مزرعة كامل جمعة التى كان يعمل فيها أجيرا دائما .. لكنه شم رائحة الخطر فلكى يمنع سكينة عن حقول كامل كان لا بد أن يخرج منها . واتخذ هذا القرار فى ليلة سوداء نشب العراك فيهابينه وبين سكينة عدةساعات منذ اقل من سنة .. وريح الخماسين تزعزع مصراع الشباك فتزقزق المفصلة « هكذا » ...

واخذ يهز يد الفأس فينبعث الصرير المعدنى . وتغير جوه النفسي كما تغير الجو الخارجى . وبدا سحاب داكن يفد من الشمال الغربى . ورحبت خضرة الحقول بتلك اللمسة تتمايلت فى انتظار الشرب وشعر هو بالخوف .. فجأة.. كأن هذه الريح ستهب فتخطف سكينة أو تغرقه بطوفانها ..

وتوقف عن السير وجلس فى تعريشة من الحطب على راس حقل لكى يستريح ... شعر بالعناء عندما جلس ..وكان الهواء يعابث الاوراق الجافة الباقية فى اعواد الحطب فيرسل صوتا خشنا . ومدد ساقيه وتأوه .. « لو لم اشتر المنديل لسكينة لارحت نفسي من هذا العذاب » لكن ... ما أجمل لون وجهها

تحت منديل طرابيشي . انه أقرب مايكون الى وجوه البنات فى صباح العيد !!

وكان متاعه أمامه.. الفأس والجردل .. كانا كأنهما ينظران اليه نظرة ودية ... أصدقاؤه فى القحط وعدته ومصدر رزقه ... و ... واضطجع .. كان المكان مسوى ممهدا .. سواه انسان ما قد رقد فيه من قبل . « ربما وحده.. وربما مع أحد » ... وتبسم ... وسحب عدته الى الامام لتكون فى مأمن معه فى هذا الكن .. وخيل اليه انه يرى حيوانات اليفة فى الفأس والجردل ... كأنهما كائنات حية لا تنطق . فيها مودة صموت من قبيل آخر غير مناغاة سكينة .

وهنا تحسس جيبه فخشخشت الورقة التى لف فيها المنديل ... كانت فى جيب الصدارى .. تحت ابطه الايسر .. فجعل يضغط ويضغط واغمض عينيه .. رخيل اليه انه يضغط على راس زوجته وانها تتأوه فى استزادة . وهناك دفء ينبعث من بطن الفرن مع رائحة خبيز .. « آه .. شيء لذيذ أن ... نشعر .. بالدفء .. بعد ... مشوار طويل .

سمع ضجة معدنية كانت صادرة من (الجردل) حينما مد ساقه فأصابته فترنح فسقط ... وعندئذ استيقظ من النوم ...

وجد نفسه فى مكانه من تعريشة الحطب .. منحته الدفء فنام .. وحلم انه فى أحضان سكينة . ومد رجله فأسقط (الجردل) فاستيقظ . فكرة ادخلته فى حلم ... وخبطة أخرجته منه ... كذلك شأن المتعبين !!

غير أن الذعر ملأ بدنه كأنه ضاع فى اليم . كان الجو قاتما والسماء تنذر بالمطر والنهار قارب أن ينتهى . فانتفض وتمطى وعلق الجردل فى يد الفأس وحملها على كتفه وسار لا يفكر فى شيء الا انه يمشي . وكان النوم قد أمده بقوة جديدة ولو انه أحس بالجوع.

ولاحت له مداخل القرية ... انه يعرفها .. هذا هو نور « الكلوب » يسطع من وراء نوافذ كامل جمعة المغلقة ... « الجبار ... كان يراود عنى سكينة ... سبب عذابى » وتنهد. وسره أن يدخل فى الظلام فقد تأخر عن بقية الانفار لانه مرض أربعة أيام فعوضها فى فرقة أخرى ... وذلك على كل حال خير من استراد النقود ... « النقود ؟! » وهز كتفه الحرة التى لا تحمل شيئا لكن ذلك أدى الى سماع الصوت المعدنى الذى ملأ احساسه طول الطريق ..

وحرك حلقة الباب الحديدية التى تشبه الخلخال فى رفق فأرسلت دقات قلقة . وأتاه صوت سكينة من الداخل يقول « مين » وفتحت الباب فعرفت جسمه الطويل الذى سد فرجة الباب فهتفت كأنها تدارى سرا : « سليمان ... حمد الله على السلامة » .. فحرر يديه ثم احتضنها ...

وكانت خطى الليل تتقدم ... والدفء فى القاعة ممزوج برائحة الدهن والخبز واللحم والبصل ... وفى الركن تحت حمالة الملابس أطفال ناموا مبكرين . وكان سليمان يحكى لسكينة عن كل ما لاقى ... وتحسس المنديل الجديد على رأسها ... ذلك المنديل الذى اشتراه بثمن تذكرة السكة الحديد ... وكان

على الفرن وعاء من النحاس فيه ماء ساخن ينتظر حتى الصباح ... وأخيرا ضحك سليمان قائلا لسكينة وهو يستسلم للنوم الحقيقى :«كنت واحشانى ياسكينة » ..

فاذا بها تبكى . فطار النوم من عينيه واخذ يسألها عن السبب فاعتصمت بالصمت فلما الح وثار قالت له :

ـ اصل ... آ ... كامل جمعة سال عليك ..

فجف ريقه وهمس سائلا :

ـ على انا ؟! والسبب ؟!

ـ يمكن تكون تحب تشتغل فى أرضه ... يمكن ..

فتعلق الكلام بينهما فترة كأنه تجمد ثم رد ثائرا محسورا :

ـ انا ؟! .. طبعا غير ممكن ..

فأطرقت تبكى وقالت بعد قليل :

ـ طيب .. وليه تأخرت اربعة أيام زيادة ؟

ـ انت عارفة السبب ياسكينة ..

فقالت من خلال دموعها وشهقاتها بطريقة لا يمكن أن يصل الى اعماقها سليمان الحكيم لا سليمان الزوج .

ـ انا كنت عارفة انك رافض رافض الرجوع عند كامل جمعة ... وعارفة ان الشغل ضرورى .. آ .. آ .. فهمت ياسليمان ..

فشهق الرجل.. كاد نفسه ينقطع.. فقد أدرك ان سكينة قد قبضت له أجر اربعين يوما أخرى من المقاول . وهذا هو سر رائحة الخبيز .. فقد جهزت « الزوادة » وهذا هو السر ايضا فى اللحم والدهن ورائحة التوابل ... وليلة واحدة دفيئة فى الدار ... كان من الممكن ان تكون ليالى اربع لو لم يتأخر هو هناك ...

وساد الصمت لكن سليمان مالبث ان نهض جالسا وقال بلهجة حماسية كان لا مفر منها لمن أجبر على خوض معركة:

ـ سكينة .. انا مسافر ... يحيى الشرف ويسقط كامل جمعة ..